

الحوار والاحترام المتكافئ عند يورغن هابرماس

Dialogue and Equal Respect According to Habermas

عبيد محمد إسماعيل الحمروش(*)

ملخص

الحوار هو تبادل الآراء أو الأفكار حول قضية ما بهدف الوصول إلى اتفاق حولها، والحوار بهذا المعنى عبارة عن حديث يدور بين طرفين أو مجموعة من الأطراف بجو يسوده الهدوء والود بعيدا عن التعصب والصراخ أو الإكراه. ومن مستلزمات الحوار الاعتراف بالآخر وبحقه في الوجود وبحقه في التعبير عن رأيه، وبحقه في الاختلاف مع الآخر. وهو الأمر الذي عمل عليه الفيلسوف الألماني (يورغن هابرماس) عندما عرّف الحوار بأنها القدرة على استخدام اللغة والرموز والعلاقات من أجل تحقيق التواصل بين البشر. ومن ثم يكون الحوار في الأصل "من أجل فهم الذات أولا، ثم فهم الآخر والتفاعل معه ثانيًا، وليس لخوض صراع معه". ومن هذا المنطلق يتضح لنا لماذا أصر (هابرماس) على احترام المتلفظين لمبادئ يسميها مسلمات في كل علاقة تواصلية، وأساس كل احترام متبادل، وهي أربعة: **المعقولة، الحقيقة، المصادقية، تطابق الفعل اللغوي**. إذن العملية الحوارية عند هابرماس لا تقوم من فراغ، بل تستند إلى خلفيات تعود إلى طبيعة المتحاورين ومجموعة من المبادئ والمعارف المشتركة.

الكلمات المفتاحية: الحوار، الاحترام المتكافئ - هابرماس - المعقولة - الحقيقة - المصادقية - تطابق الفعل اللغوي.

مقدمة

الحوار دليل على فهم وفعل الإنسان للحضارة، وأساسه الاحترام: فاحترام الآخر هو الشرط الأول للعدالة وبالتالي للتحرر؛ فالحوار يدفع الفرد لتبادل وجهات النظر مع الآخرين حول موضوع البحث والمناقشة، إذ يجري أساسا هذا التبادل بالتوازي قبل وبعد الحوار، والقصد من هذا كله أنه ليس فقط الاحترام الذي ننظر من خلاله إلى الأطراف المتحاور، بل كذلك الحرص المتبادل كي يتم النظر إلينا باحترام، من منطلق (الفعل ورد الفعل). الحوار ليس مطلوبا لذاته، كما هو الشأن في الخطاب المعاصر، وإنما المراد هو الوصول إلى نقاط ارتكاز مشتركة بين المتحاورين تؤسس لتفاهم أكبر على المستوى الحياتي والنشاط الإنساني، ولكن

(*) باحثة دكتوراة بقسم الفلسفة كلية الآداب جامعة بنغازي

للأسف، فما يحصل اليوم هو أن الأقوى يفرض الحوار على الأضعف ويقرر النتائج كما يريدتها وكما يتصورها، وما على الآخر إلا أن يصغي ويبارك، وإلا فإنه سيوصم بالتخلف أو الإرهاب أو رفض الآخر. غير أن الهدف من الحوار في الأصل وضع أو خلق ضوابط و شرائط توفر المناخ الملائم الطبيعي الذي يتحول بدوره إلى مسلك عملي منتج بالإضافة إلى خلق أجواء هادئة يسودها الاحترام والاعتراف ليكون التفكير هادفا ومستقلا، وعليه كل فرد من المتحاورين مطالب بأن يحترم الآخر ولا يعمل على السخرية منه أو استفزازه، وهذا ما نعينه بالاحترام المتكافئ الذي يفرضه الحوار ويتطلبه، فعدم استفزاز الآخرين هو الذي يجعل من احترام الرأي والرأى الآخر أساسا لبناء أسس الديمقراطية والحوار الفعال، ومن ثم يكون الاحترام المتكافئ ضرورة إنسانية وحضارية، وهذا هو مطلبنا.

لذلك يعد الحوار وسيلة مهمة من وسائل التبليغ، بقصد الوصول إلى الحقيقة، فالمعروف عنه أنه أداة مشتركة بين أفراد المجتمع داخل الفضاء العمومي، ففيه يستعرض الفرد آراءه، ومن خلاله يتم طرح المسائل المراد مناقشتها. وأهم ركائز الحوار هو التسامح الفكري النبيل الذي يعد قوام التفاعل الاجتماعي الإيجابي، لأن التسامح ينتفي معه الشر، فهو يشترط تعايش الناس بسلام مع الآخرين الذين يتبنون معتقدات و قيم مختلفة جذرياً⁽¹⁾. كما يرتبط بالقدرة على تخيل وجود إمكانيات متاحة في الواقع غير تلك الماكثة في الذات المنفردة؛ فالتسامح وسياسة الحياد الإيجابي يعتمدان على مبدأ في غاية النبل وهو مبدأ (الاحترام المتبادل)، أو ما يمكننا أن نطلق عليه (الاحترام المتكافئ)؛ حيث يتطلب هذا المبدأ احترام الاستقلالية، والإيمان بقيم التنوع والاختلاف، بما في ذلك احترام اختلاف العقيدة والمذهب. وتعد هذه إحدى نقاط القوة في تداولية الفيلسوف الألماني يورغن هابرماس Jürgen Habermas⁽²⁾

(1) تدهوندترش، دليل اكسفورد للفلسفة، ج1، ترجمة نجيب الحصادي، (دار الكتب الوطنية، بنغازي، ط2004)، ص480.

(2) ولد بورغنهارماس في (18 جويلية 1929م - ٩). في مدينة غومر سباخ بالقرب من مدينة دوسلدورف بألمانيا، ومن عام 1949 حتى عام 1954 تلقى تعليمه الجامعي بجامعة (غوتنغن وبون)، وكان في شبابه قد انجذب إلى الماركسية اللينينية، وتعرف على أعمال (ماركس Marx 1818-1883م) الشاب، وذلك بمساعدة أستاذه (لوفيت)، واشتغل بفلسفة التنوير مما حفزه على الاهتمام بقضية العقل، والاهتمام بموقف فكري مختلف عن موقف ممثلي الجيل الأول لمدرسة فرانكفورت، وقد عمل على نقد الفكر الوضعي، وبناء نظرية اجتماعية قائمة على الحوار ثم على أخلاقيات المناقشة، ينتمي فكريا للجيل الثاني من رواد مدرسة فرانكفورت أو النقدية الجديدة التي تتميز بدفاعها عن الفرد ضد كل سلطة، وبدفاعها عن العقل ضد كل مظاهر اللاعقلانية والفكر المغلق، حيث درس على يد (ثيودور أدورنو T. Adorno 1903-1969م)، فانصب اهتمامه على الفعل والبنى الاجتماعي حيث وجد أن الفلسفة لها مهمة محدودة وهي المحافظة على إمكانية خطاب عقلائي بدونه لا تشتغل الديمقراطية، وله ما يربو على خمسين مؤلفاً في الفلسفة وعلم الاجتماع، إذ أنه قد نال من الشهرة ما لم ينله أي فيلسوف من فلاسفة الجيل الأول لمدرسة النقد والنظرية النقدية فرانكفورت والتي كانت تضم فلاسفة عظاما من قبيل (هوركهايمر - أدورنو - ماركوزه) فقد عد من روادها كونه الفيلسوف الوحيد الذي فرض نفسه على المشهد الثقافي والسياسي في ألمانيا بوصفه فيلسوف الجمهورية الألمانية الجديدة وفقاً لتعبير وزير الخارجية الألماني (بوشكا فيشر)، وذلك منذ أكثر من خمسين عاما. ومن أهم مؤلفاته: التحول البنيوي للمجال 1962، النظرية والممارسة 1963، المعرفة والاهتمامات الإنسانية 1971م، ومن بين أضخم إنتاجاته: نظرية الفعل التواصلي 1981م التي تميز بها واشتهر عن طريقها بين فلاسفة الفلسفة المعاصرة؛ ومن أشهر أفكاره الفلسفية دفاعه عن

التواصلية التي تجلت في البرهنة على اعتبار الأخلاق هي أس العقلانية التواصلية، التي يتخذ فيها أسلوب طرح الوقائع بشكل صادق لكي يحقق مكسب كبير وإعجاب الطرف الآخر (إبهاره) - مع ذكر الأسباب المؤيدة للوقائع، واستخلاص قواعد ومعايير يتفق عليها معه، وذلك هو المقصود بالاتصال. فقد صاغ (هابرماس) مفاهيم أساسية برؤية سوسيولوجية ليست ذات بعد واحد للعلاقات التواصلية التي تقوم في الحياة اليومية، والتي لا تفجر علاقات إيجابية فحسب، بل وترتبط بين الجماعة والمجتمع، ولا تنظر إلى "الاختلاف" بحساسية شديدة، وإنما تنظر إلى الآخر من موقع الاحترام المتبادل، الذي لا يعني بالضرورة التشابه معه، وإنما احتواء "الآخر" في اختلافه، وهو ما يضمن تكافؤ الفرص أمام الآخر المختلف وإمكانية تجاوز أي كراهية وحساسية، وكذلك إلغاء الثغرات التي من الممكن أن تحدث في حدود كل جماعة. فإن الفعل التواصلية يتضمن عموماً فكرة التعايش التي تقوم على التفاهم والحوار والتسامح والمشاركة الوجدانية، ومد جسور التواصل مع الآخر، والاعتراف به، وتقبله ككيان مستقل عنه له الحق في الوجود مثله وند له.. ونجد أن الحوار يتحقق من القضايا المتفق عليها بين الجانبين أو التي يجب أن توفر مجالا للاتفاق وليس الاختلاف، وينبغي أن ينطلق الحوار من الموضوعات التي تشغل الإنسانية، ويمثل التغاضي عن مناقشتها والحوار حولها خطراً على الإنسانية. وعلى المتحاورين الالتزام المجدد بقيم الحوار والمناقشة عند كل حوار ينشأ بين طرفين من الأطراف، الأمر الذي يجعل عملية الحوار عملية إيجابية متجددة باستمرار، يشبه بالضبط دورة الحياة.

إن الحوار عملية تداولية؛ أي أنه يتم عبر علاقة تبادلية تعنى الفهم والتفسير من خلال الآخر باعتباره "انت"، أي شخص مخاطب بذاته على أن يتحدث وأن يشارك في الحوار، ولا يمكن أن تحدث في اتجاه واحد يسير مع الانا الى الآخر، فهذه العملية ينبغي أن تسير من الآخر الى الانا، والانا تملك زمام المبادرة لتحقيق هذه العملية على النحو الصحيح⁽¹⁾.

تبدو أهمية الحوار بشكل واضح من خلال علاجه للخلاف الذي قد يظهر في الاسرة وفي المجتمع؛ إذ هو الذي يحيطهما بسياس الوحدة والقوة والترابط والتقدم والاستمرار، كما يعالج المشكلات الانسانية على الصعيد الدولي بعيداً عن المواجهات

مشروع الحداثة، وتأكيده على أنه مشروع لم يفشل ولم ينته بعد- كما شاع عنه في الأوساط الأوروبية- ومن ثم وضعه هذا الموقف في اتجاه معارض تماماً لأسلافه بالنظر إلى موقفهم من نقد عقل التنوير، فهو يرى أن عملية التنوير لها جانبان: يتضمن أحدهما فكر البناء الهرمي والاستبعاد، في حين يحمل الجانب الآخر إمكانية إقامة مجتمع حر يسعد به الجميع. (شارل حلو: أعلام الفلسفة العرب والأجانب، الجزء الثاني، إعداد روني إيلي ألفا، ومراجعة جورج نخل، (بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 1992)، ص523).

(1) سعيد توفيق، في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، النشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، 2002، ص154.

والصراع، ومن شأن هذا يثمر التفاهم والتعاون بين أفراد الأسرة الواحدة وبين أفراد المجتمع الواحد وحتى بين المجتمعات المتباينة، ويؤدي الي التقارب ويسهم بشكل فعال في تلاقي الحضارت، وهو ما يصطلح عليه التفاعل الحضارى الذى يدعم الاتصال والتعاون بين الدول ويساهم في مواجهة تحديات العصر ومشكلاته⁽¹⁾.

وبعد الحوار القائم على التكافؤ والاحترام هو القيمة الاخلاقية السامية، وبلا شك أفضل الطرق وأسلمها لغد أفضل وحياة مستقبلية تقوم على التفاهم بعيدا عن كل أوجه الصراع. إلا أن المفهوم الحديث للتسامح الذي جاء به فلاسفة عصر الأنوار وهم أول من فرض استقلالية الفرد المفكر من كل الضغوطات الخارجية؛ هو الاعتراف الكلي بالآخر وتقبله كما هو وإن من حقه (كما من حقي) أن يعتنق ما يشاء وينتمي إلى ما يريد، كما يجب أن يتحرر الإنسان من كل الآراء الباطلة والتي يثبت عدم صحتها، وأن نحترم الرأي الآخر ونجله وننزل منزله، باعتباره خيار وجودي في إطار مبدأ ما نسميه بحق الاختيار والحقيقة التعددية البشرية، ولعل السبب الذي دفعهم لذلك هو ما خبروه من حرب الأديان في أوروبا نهاية عصر النهضة، حينها، طرَح سؤال حول أفضل طريقة للعيش معاً دون عنفٍ داخل المجتمع. وراهنوا على العقل بوصفه السمة الوحيدة المشتركة بين كل الكائنات البشرية التي يمكن الوثوق بها للحدّ من العنف المتعجّر بين الجماعات الدينية المختلفة، فاستطاعت الحداثة، من خلال قبولها المطلق للعقل، أن تبتّ في الجدل وتوسّس فضيلة التسامح العقلانية في أجواءٍ صارت أقلّ قدسيةً وأكثر إنسانية. وهو ما نلاحظه بقوة في رسائل (جون لوك) المتعددة عن التسامح.

يبدو التسامح الذي يُعتبر سمة عامة في الفكر الغربي منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر، وفكرة معاصرة في زمننا هذا، أنه غائباً عن اللغة العربية، وبالتالي، غائباً عن أنماط التفكير كافة التي تعمل عبر هذه اللغة، وهذا الغياب بدا أكثر وضوحاً في الربيع العربي وظهور الدواعش على ساحة الأرض العربية، لذلك أصبح من الضروري النظر إلى هذه القيمة الأخلاقية (الاحترام والتسامح) بوصفها ضرورية ولا يمكن الاستغناء عنها للعيش معاً في مجتمع تعددي؛ تحتاج منا لقناعة وقوة، و طاقة فكرية من نوع خاص، تعرف حدودها، وتقرض احترام هذه القواعد في نفوس أصحابها، لأن نظرة الأنانية والفر دانية Individualism – التي رأى الفيلسوف الكندي (تشارل تاييلور Charles Taylor) أنها أول أمراض الثقافة المعاصرة، والتي يبحث كل فردٍ من خلالها عن هويته في تطوُّره الطبيعي على جميع المستويات كي يعرف ذاته ويحقّقها.⁽²⁾ وخطورتها تكمن في أنها تقود إلى نسبية أخلاقية

(1) مجدى ياسلوم «بنات الأفكار في أدب المناقشة والحوار»، دار الكتاب العلمية: بيروت ط1، ص199

(2) Charles Taylor, *Grandeur et misère de la modernité*, Québec, Bellarmin, 2004, p. 26.

للقيم Relativism moral: لكل واحد قيمه الخاصة وهي في نظره قيم مطلقة، أي يصعب مناقشتها أو انتقادها - هذه الفر دانية (الوثوقية) بكل حيثياتها الغربية قد تسلت إلى مجتمعنا فأثرت في كثير من أفرادها، وأسفرت هذه النظرة عن وجود كثير من الانتهازيين في شتى مرافق حياتنا المؤسساتية.

وأسلوب هؤلاء في الحياة أسلوب عقيم انتهازي لا يراعي شيئا إلا تحقيق المتعة الخاصة ولو على حساب حقوق الآخرين، والشئ الخطير ليس في وجود هذا النفر من الناس بيننا، ولكن فيما يضربونه للناس من أمثال، وما يثرونه في نفوسهم من تحريك الرغبات الدنيا (الفردية المسرفة، الانتهازية، والنفاق الاجتماعي، والسطحية في أسلوب الحياة)، فتحاول بدورها أن تعبر عن نفسها بإشباع هذه الرغبات، بدلا من تهذيبها والارتفاع بها، والتوفيق بينها وبين الرغبات السامية في الإنسان، والتعبير عن هذه الرغبات يؤدي حتماً إلى انهيار أخلاقي، فيما يتخذه الفرد من سلوك اجتماعي، وما يؤثر به عن طريق هذا السلوك في نفسية الجماعة، هذه النظرة غير المتكافئة الأحادية التي لا تراعي حق الآخر في الاختلاف، وترفض الحوار معتقداً بأنه يملك الحقيقة المطلقة والنهائية، فعندما تسود معايير الأنا تسود الأنانية وعندما تسود معايير الذات تسود الذاتية، ولهذا تعد الذاتية والأنانية شعره توازن كفتي الميزان الاجتماعي⁽¹⁾.

ومما لا شك فيه انه من الممكن عبر عملية الحوار أن نجد حل وسط يرضي جميع الأطراف، وما يعزز وجهة النظر هذه ما نجد في تاريخ الافكار القيمية، على الرغم من كونه يدور بالضرورة داخل نطاق التفكير العقلاني الانفتاحي التنويري. فغير التفكير العقلاني تطمح البشرية التفاؤلية إلى الوصول إلى كلمة سواء يتفق عندها الجميع على نبذ العنف والاستجابة لنداء العقل. وهذا هو هدف الفهم المتبادل وأن بإمكان البشر الوصول إلى حلول متعددة عبر الحوار، كما يظهر الوجه الآخر للطابع العملي للحوار والتواصل، في المجال السياسي وخاصة في فكرة (هابرماس) حول "الديمقراطية التشاورية أو التداولية التي تقوم على مبدأ التشاور أو التداول، بوصفه مبدأ وشرطا ضروريا للديمقراطية. لذا يتخذ التشاور العقلي، صفة الضامن لشرعية القرارات السياسية والاجتماعية⁽²⁾.

ففي القرن العشرين، وبسبب فظائع الحربين العالميتين والأنظمة الاستبدادية المترتبة عنهما، تبين أن قدرة العقل على التنظيم للعيش معاً بسلام وبلا عنف مجرد وهم. بالإضافة إلى ذلك، نمت التعددية الثقافية للمجتمعات الديمقراطية،

(1) عقيل حسين عقيل، منطق الحوار (بين الانا والآخر)، بنغازي، دار الكتب الوطنية، ص95.

(2) الزواوي يوغور، منزلة الحوار والتواصل في الفلسفة، قسم الفلسفة. كلية الآداب جامعة الكويت، ص156

خصوصًا الغربية (تنوّع إثني وديني وإيديولوجي...)، وقد تخطى هذا النمو السريع مستوى الاختلاف بين الأفراد، مما أدخل تحوُّلاً على التساؤل، وصار موجَّهاً نحو كفاية العقل وقدرته على جعلنا نعيش معاً، وعلى جعلنا نبني مجتمعاً ضمناً inclusive يشمل كل الاختلافات (الفردية والثقافية) دون عنف، فغياب أخلاق الحوار التي ينشدها الإنسان مع الآخر، أنتج أزمة أخلاقية تحيط بها مجموعة من الأسئلة الأنطولوجية والإبستمولوجية حول معنى الذات؛ وأن ما يزيد من تأزم الإنسان المعاصر هو عدم قدرته على الفهم الصحيح لذاته ولكل ما يحيط به، فهو ينجر في سيل الأزمات في ظل انهيار القيم، وعلى رأسها غياب مبدأ الحوار في أشكاله المتعددة مع نفسه ومع الآخر، ومن خلال هذا الوضع الذي يعاني منه الإنسان المعاصر جاء (هابرماس) بالأخلاق التطبيقية من خلال أخلاقيات الحوار التي يدعو إلى تأسيسها والدفاع عنها، خاصة في النظرية التواصلية التي قال بها، ولعل أهم جهتين ركز عليهما في موضوع أخلاقيات الحوار والتي تتأسس عليها النظرية التواصلية عنده هما: فحص اللغة والكلام من جهة، والأفعال من جهة أخرى، إذ لكي يكون الحوار صحيحاً، فإن أخلاقياته تسمح وجوباً بالتفاهم بين الذات، وهذا ما يجعل الحوار قويا وسليماً، كما يتحدد الهاجس الذي شغله في العلاقة القائمة بين النظري والعملي لأخلاقيات الحوار يتجلى لنا في العقلانية التواصلية. ولهذا كان عليه أن يسعى إلى تأسيس أخلاقيات الحوار، في ظل تنامي العولمة وسيطرة القطب الواحد وتراجع القيم الأخلاقية، الشيء الذي دفعه إلى التفكير الدائم والمتواصل في مثل هذه القضايا.

يمكننا أن نسأل كيف لعبت الخبرة الحديثة عن عدم الاتفاق المعقول دور أساسي في التراث السياسي المتحرر الليبرالي. فالمثل الأعلى المرشد للبرالي هو أن شروط الارتباط السياسي يجب أن تكون شفافة بشكل عقلاني – أي أن يفهم الآخر جيداً مهما اختلف معه – بالنسبة لهؤلاء الذين من المفترض أن تلزمهم لأنه عن طريق ذلك فقط يمكن للأفراد التمتع بالاحترام كأشخاص على طبيعتهم، هذا المثل الأعلى عن الاحترام المتساوي يستوعب الطريقة التي تختلف بها المبادئ السياسية عن المبادئ الأخلاقية الأخرى التي تستثيرها المبادئ السياسية ليست فقط المبادئ التي نحكم بها على الناس، ولكنها المبادئ التي تستخدم معها القوة لضمان الانصياع.⁽¹⁾ لذلك يقول (هابرماس) "علينا أن نعامل الآخرين على أن لديهم نفس الحق لوضع شروط الارتباط السياسي – نعتبرهم مواطنين أحرار ومتساويين فقط إذا افترضنا أن المبادئ القهرية التي نطرحها

1 الطيب بوعزة: نقد الليبرالية، (2009م)، (ط1)، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، (السعودية)، ص25.

على أنها ملزمة على الجميع سوف تكون أيضا هدف للاتفاق المعقول⁽¹⁾، كما يؤكد على ذلك التوقع الفيلسوف الفرنسي (جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau 1778/1712م). "بأن الذين يستخدمون العقل يميلون طبيعيا لعدم الاتفاق حول الحياة الطيبة قد دفع بذلك التراث الليبرالي للبحث عن قواعد الحياة السياسية داخل أخلاق جوهرية يؤكدها الجميع"⁽²⁾ عبر الاتفاق العقلي والعقد الاجتماعي، أو التقرير الذاتي للمصير، ومما لا شك فيه أن هذا التوقع شجع على المثل الأعلى الذي هو الشفافية السياسية؛ لأنه يرى بأن تنامي عدم المساواة في المجتمع الحديث دفع المجتمع إلى تأسيس نظام سياسي معارض للمجتمع المدني، فالدعوة إلى الإرادة العامة هي أداة الكفاح ضد عدم المساواة عمليا وتكون الدولة لديه باعتبارها جماعة المواطنين، هي المقابل الضروري للتفاوت الاجتماعي الذي ينتج من التحدث نفسه.⁽³⁾ لذلك فضل فكرة السيادة الشعبية على فكرة المجتمع المتجسدة في الدولة القومية، كل ذلك يحدث باسم العقل الذي يتحول إلى سيادة شعبية، كلي يؤسس تحالف الإنسان مع الطبيعة، على الرغم من وعيه التام بأن الإرادة العامة ليست نقية على طول الطريق، والفضاء العمومي بالنسبة لـ(هابرماس) هو مفتاح الديمقراطية الذي يكون دائرة التوسط بين المجتمع المدني والدولة، إذ يربط بين دوائر المصالح المتعددة والمتناقضة وبين دوائر الدولة، ويجمع الأفراد في رأي عام يسمح بتبادل عقلاني للآراء ووجهات النظر ويوحدتهم في رأي عام مفتوح يكون وسيلة للضغط على دولة الرفاهة التي أفسدته الحداثة بفضل العلم والتقنية ووسائل الدعاية واللهو والتسلية، في محاولة لإعادة بناء ديمقراطية الجماهير التي تختلف عن الديمقراطية الكلاسيكية⁽⁴⁾ كما أن هذا الفضاء المفتوح هو فضاء رمزي يتكون عبر الزمن عن طريق منظومات القيم والاتصال والاعتراض والتفاهم والتسامح الفكري والديني بحيث يعكس حقيقة الديمقراطية التي تعبر عن الآراء والمصالح والأيديولوجيات المختلفة، ويفترض أن يتمتع الأفراد باستقلالية تعكس جميع آراء النخب والأحزاب والتنظيمات الحكومية، كما يفترض استقلال الأفراد تجاه العائلة والحزب والجمعيات السياسية حتى يتمكنوا من تشكيل "سلطة الكلمة" بدل العنف والاقত্তال والصراع الطبقي.⁽⁵⁾

وتعد مسألة الديمقراطية التشاركية إحدى اهتمامات هابرماس المركزية؛ حيث طور هذا المفهوم بالموازاة مع مفاهيم المجتمع المدني والفضاء العمومي التي

1 هابرماس: مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة لبرالية، ترجمة: جورج كنورة، (2006م)، ط1، (المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان)، ص9.

2 جان جاك روسو: العقد الاجتماعي، ترجمة: فنانقرو، (دار القلم، بيروت، دب)، ص37.

3 الآن تورين: نقد الحداثة، ترجمة: أنور أمغيث، (1997م)، (المجلس الأعلى للثقافة)، ص42.

4 (دايفد فونيسكا: أثر هابرماس في الفقه الدستوري المعاصر، (2007م)، "مجلة القانون العام وعلم السياسة، العدد 6" ص1445.

5 فرانك أدولف: المجتمع المدني، "النظرية والتطبيق السياسي"، (2009م)، ترجمة: عبدا سلام حيدر، (مركز المحروسة للنشر، القاهرة)، ص85.

أصبحت لها راهنية كبرى بعد انهيار المعسكر الشرقي، مقارنة هامة لارتباطها بأخلاقيات الحوار والمناقشة. فهو يريد تأسيس ديمقراطية على أساس جماعة مثالية للتواصل، خالية من أي هيمنة أو سيطرة، كما أن مفهوم التشاور يعد مفهوماً مركزياً؛ لأننا نجد في هذا البراديجم Paradigm (النموذج المعرفي) التشاوري كل ذات مستقلة لها حق إبداء رأيها في القضايا المطروحة للنقاش في الفضاء العمومي⁽¹⁾. وهنا تتبلور مهمة الفلسفة عند (هابرماس)، إذ يجب على الفلسفة أن تدعي الشمولية والتأسيسية، وألا تتفوق في مجالها النظري بل تقتحم المجال العملي والتطبيقي، وهو الأمر الذي سيتم تناوله في المبحث القادم من هذا البحث، استجابة على ذلك أثبتت الخبرة الحديثة أنها أكثر تركيباً عما أفترض المفكرون الليبراليون صاغ العديد منهم مبادئهم السياسية في إطار فلسفة متفردة عن الحياة وحثوا على انفصال مدقق تجاه الأشكال الموروثة من المعتقدات والتراث الثقافي، لكن هذه النظريات نفسها أصبحت هدف لعدم الاتفاق المعقول خصوصاً في مسار الحركة الرومانتيكية وكنتيجة لذلك فإن هذا التفرد العام مهما كانت درجة صدقه لم يعد يستطيع أن يخدم بوصفه فلسفة عامة للنظام السياسي الليبرالي. لا يعني ذلك أنها توقفت عن أن تكون تصور أخلاقي، لكن قيمة الاحترام المتساوي الذي هو روحها يتطلب التمييز بعناية بين المبادئ السياسية التي توحدنا كمواطنين والمثل العليا الأشمل وإن تباينت، والالتزامات التي نؤكد عليها أيضاً كما يرى (هابرماس). مبدأ الاحترام، الذي يؤسس لمبدأ الحوار، إن فرض وجود الذات أو الهوية الذاتية لا يتحقق إلا بوجود طرف آخر قابل للنقاش والحوار بصورة كلية بعيداً عن الإيديولوجية المسبقة، كما يجب أن يكون الحوار مبني على قواعد حقيقية، وأن لا يقوم على أفكار يوتوبية، أي أن العلاقة البيئشخصية لا بد لها من أن تتحرك في إطار نسقي أخلاقي وهذا ما برهن عليه هو و(كارل أوتو أبل Apel Otto-Karl)، فأخلاق المناقشة عندهما تقدم إجراءات كونية تفرض منذ البدء على المتناقشين الالتزام بقيم الكونية والشمول، فأخلاق المناقشة عندهما من حيث أنها كونية الطموح، تصر على أن المعيار يكون صالحاً إذا ما توفر على الموافقة الحرة لكافة الأطراف المعنية، ولذلك يؤكد (أوتو أبل) على أن صلاحية كل فعل أخلاقي في الحوار يجب أن ينطلق من معرفة دقيقة باللغة و المنطوق اللساني الذي بإمكانه توحيد الأفكار و العقول و تطويق تشتت العصبية و العنف المنتشر في كل أرجاء العالم، فمثلاً لغة العلم وحدت العقول و التوجيهات نحو مغزى حقيقيلتطوير التكنولوجيا، لقد أكدت الأخلاق التواصلية ضرورة وقيمة تواجد الجماعة الإنسانية القابلة للنقاش والتواصل والتداول، والتي لا يجب بأي شكل من الأشكال أن تخالف المعايير.

(1) محمد الأشهب: أخلاقيات المناقشة في فلسفة التواصل لهابرماس والأرشد، دار ورد، 2013، ص 24.

حاول (هابرماس) تأسيس الأخلاق وفقا لمعايير، عدها سمات الحوار الأخلاقي عنده، ومن أبرز هذه السمات :

- 1- إنه غائي من منطلق أنه معني باختيار الغايات والتقييم العقلاني للأهداف. وهو ما يتجلى في عمليتي التبرير والتطبيق.
 - 2- يقيم الحوار الأخلاقي الغايات عن طريق تقدير " ما يناسبني " أو " ما يناسبنا"، ففكرة هذا الحوار الأخلاقي في المعادلة ترتبط بكل من تاريخ الحياة الفردية للشخص والحياة الجمعية للمجتمع، ويطلق هابرماس على الخطابات المتعلقة بحياة الفرد " أخلاقية وجودية"
 - 3- هو احترازي فهو يتعلق بالسبل التي ننظم بها إشباع رغباتنا وغاياتنا مع النظر للسعادة ليس في الوقت الحاضر فحسب، بل وفي المستقبل أيضا ولسعادتنا مع اعتبار كل شيء.
 - 4- يبرز الحوار الأخلاقي القيم المرتبطة بتاريخ الفرد وبالتقليد وبالجماعة الثقافية التي ينتمي إليها هذا الفرد، وبالنسبة لهابرماس إن مفهوم القيمة هو مكون رمزي أساسي للثقافة أو الحياة الاجتماعية وبالتالي عند القول إن القيم أساسية فيستحيل تحليلها إلى مكونات أبسط.
 - 5- إن فهمه لمفهومي الخير والقيمة يستند إلى سمة منطقية للحوار الأخلاقي، إن النصائح والأحكام وترتيب الأولويات التي ينشأ في سياقها الحوار الأخلاقي يتمتع بصحة نسبية أو شرطية.
 - 6- الحوار الأخلاقي "يعني بفهم الفرد أو الجماعة لذاتها، وسواء أكانت المسائل الأخلاقية تخص الفرد أو الجماعة فهي تعتبر مسائل تأويلية بصفة عامة إذ تهدف إلى إيضاح الذات واستكشافها⁽¹⁾.
- ومن تأمل هذه السمات المميزة للحوار الأخلاقي نرى أن الحوار عند (هابرماس) يتأسس على الاحترام؛ حيث يعتبر الحوار أساسا للاحترام الذي يديه أحد المتحاورين للآخر أيا كانت الآراء المختلفة، أما شروط الحوار، فقد افترض شروطا لا غنى عنها للانخراط في الفعل التواصلي بغية تحقيق التفاهم بين الأطراف أو الذات المشتركة فيه⁽²⁾. كان من أهمها:
- 1- **التفاعل بين الذات:** لا يتم الفعل التواصلي – وفقا لهابرماس- إلا من خلال تفاعل الذات مع الذات الأخرى، أي يكون الحوار تفاعلا بين شخصين أو أكثر

(1) شريقي أنيسة، فلسفة أخلاقيات الحوار عند هابرماس، (مجلة الحوار الثقافي، جامعة عبد الحميد بن باديس- كلية العلوم الاجتماعية- مخبر حوار الحضارات والتنوع الثقافي وفلسفة السلم، مجلد5، عدد2، 2016م)، ص136.

(2) عبدالغفار مكايي: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، حويلات كلية الآداب، الكويت، 1993، ص 193.

داخل العالم المعيش⁽¹⁾. وبالتالي يكون من حق كل فرد القدرة على الكلام والفعل، لكن شريطة أن يلتزم الصدق ولا يحيد عنه.

2- التواصل من خلال اللغة: تعد اللغة أداة ضرورية للتواصل الفعال، فمن خلالها يتم الحوار وتنتقل المعاني فتنشأ بواسطتها العلاقة التفاعلية أو بناء الفعل التواصل، بين الذات والذوات الأخرى. ومن ثم تكون اللغة هي الشرط الأساسي التي يقوم عليها الفعل التواصل، ومن خلاله يتم الوصول إلى نوع من التفاهم⁽²⁾.

3- المصادقية: ويعد هذا المعيار من أهم المعايير التي يشترطها ويؤكد عليها الحوار الهابرماسي، فغذا شكك أحد المشاركين في التواصل والدقة المعيارية لتعبير ما، فإن مزاعم الصدق نفسها تصبح موضع سؤال وربما يختل التواصل وبالتالي لابد للمشاركين في التواصل من إعادة مراجعة بصورة دورية ومستمرة لتصحيح هذه الأخطاء⁽³⁾.

4- التحرر من كل أشكال الضغط والقهر: أي أن يتمتع المتحاورون بحرية كاملة يتخلصون من خلالها من كافة صور أشكال الضغط والقهر التي يمكن أن تمارس على أحدهم أو على الجميع من الخارج. ومن ثم كان من أهم الشروط التي يتأسس عليها الحوار هو أن يكون المتحاور حراً، والحوار يتم في مناخ يسوده الحرية الكاملة. وهنا تلتقي فلسفة (هابرماس) النظرية التي تعد نتاجاً للفعل الإنساني، وتخدم ذلك الفعل وتهدف لتحقيق أكبر قدر من الحرية للإنسان⁽⁴⁾. فالتواصل في أصله هو عبارة عن "علاقة حوارية حرة بين فئات المجتمع المتعددة والمتباينة، إيديولوجيا وطبقيا، علاقة تتوخى بناء وعي بمنأى عن ضغط المؤسسات والأجهزة"⁽⁵⁾.

5- المشروعية المعيارية للقول: ونعني بها أن يأخذ كل متحاور فرصته الكاملة في القول أي أنه يجب أن تتاح لكل شخص مشارك في الحوار فرصة للحوار وأن يتمتع كل المشاركين بحق التأكيد أو الدفاع أو التساؤل حول ما يراه من قبول أو رفض لمزاعم الصدق وفق المعايير المعترف بها⁽⁶⁾.

وعلى الرغم من ذلك توجد شكوك حول نظرية (هابرماس) الاتصالية للمناقشة المثالية؛ حيث يبدو أن تأملاته وقعت في معضلة الفكرة التي يقترحها عن العقلانية العملية أو السبب الاتصالي، أو الحوارية كما أطلق عليها ذلك في بعض الأحيان،

(1) شريفي أنيسة، فلسفة أخلاقيات الحوار عند هابرماس، مرجع سبق ذكره، ص136.

(2) المرجع السابق، ص140.

(3) المرجع السابق، ص140.

(4) أيان كريب: النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة محمد حسين غلوم، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، 1999، ص 350-351.

(5) عمر مهيب: هابرماس والخطاب الفلسفي للحدائق، مجلة مدارات، تونس، العدد 11-12، 1999، ص6.

(6) شريفي أنيسة، فلسفة أخلاقيات الحوار عند هابرماس، مرجع سبق ذكره، ص141.

فالكثير من التعبيرات فيها الكثير من الأكاذيب والمغالطات؛ إذ يعتقد أن الانحراف عن هذه الشروط يشير إلى أهمية وضرورة وجودها⁽¹⁾، وهكذا تعطي عملية التواصل الاستنتاجات المرجوة بفضل المحتوى الأخلاقي الذي بني بداخلها منذ البداية. فموضوع فكرة الاتصال Communication ليست كما نتصورها تتعلق بالوسائل المعروفة للاتصال، ولكنها الفكرة الجديدة عن كيفية التواصل ولها تطبيقات في التربية والسياسة ذات أبعاد وفعالية مهمة وكذلك خطيرة، فنظرية الفعل التواصلية برغم طابعها الفلسفي فهي مسألة تخص السياسة، ونجاح الحوار مع الآخر يقتضي التلاحم بين النظرية والتطبيق، أي الانسجام بين التنظير الفلسفي والتنفيذ، الذي يأخذ طابعا سياسيا، وهنا تظهر استحالة التمييز داخل المشروع الهابرماسي بين هابرماس الفيلسوف وهابرماس السياسي، وهو الذي عُرف بطابعه التوجيهي وسعيه الدءوب لربط النظرية بالتطبيق والممارسة حتى ظن البعض أن ليست في الواقع إلا تعبيراً وتأسيساً لمواقف سياسية، طبعَت مسيرة مثقف انخرط منذ البداية، ولا يزال في الحياة العمومية⁽²⁾. ومن ثم أخذ بعض نقاد (هابرماس) عليه ضيق نظريته إلى مفهوم الأخلاق الذي يشير فقط -عنده- إلى القضايا المتعلقة بالرضا الشخصي وتقرير المصير السياسي⁽³⁾، وبناء على ذلك كان اهتمامه باللغة؛ حيث تلعب دوراً مهماً في الفعل الأخلاقي التواصلية، ولذلك حاول إعادة بناء الفعل التواصلية عن طريق اللغة، "فاللغة هي الوسط الذي من خلاله يتفاهم الذين يرغبون في التواصل، واعتبر أن لها ارتباطاً بالفعل وهي الوسيلة الأساسية لما سماه بالأخلاق التواصلية"⁽⁴⁾. ومن ثم كان المحور التالي الذي يتحدث عن أهمية اللغة في نظرية الفعل التواصلية.

خاتمة

وهكذا رأينا كيف أن نظرية الفعل التواصلية عند (هابرماس) نظرية قبلية، تحاول أن تقوم على افتراضات غير مستمدة من الواقع التجريبي، ولكنها مجرد افتراضات افترضها عقل هابرماس، ولذلك يمكننا القول بأنها نظرية اجتماعية تحاول أن تصحح مقاييسها النقدية. ويضاف إلى هذا أنه من أكثر الفلاسفة المعاصرين الذين تثار حولهم الخلافات، رغم أنه يبدو أنه مخلص لمبادئه وأفكاره الفلسفية التي جعلته

(1) المرجع السابق، ص 141.

(2) جدول مقورة: هابرماس: الفعل التواصلية وجدلية الذاتي والتناوتي، مجلة التربية والابستمولوجيا، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة- الجزائر، مخبر التربية والابستمولوجيا، العدد 4، 2013، ص 78.

(3) William Reh, Discourse ethics, In : Jürgen Habermas Key Concepts, edited by Barbara Fultner, RoutledgeTaylor & Francis Group, London and New York, 2014, p.115.

(4) شريقي أنيسة، فلسفة أخلاقيات الحوار عند هابرماس، مرجع سبق ذكره، ص 137.

يرفض جائزة كبرى لمجرد أنه اعتقد أنها مقدمة من دولة لا تحترم الديمقراطية وحق كل إنسان في أبداء رأيه دون أن يلحق به الأذى من الأنظمة الحاكمة.

فالشروط التي وضعها هابرماس للحوار، والأخلاقيات التي رأى ضرورة الالتزام بها في النشاط التواصل، والمعايير التي يجب أن تخضع لها أفعال التواصل، كل هذا أضفى على مشروعه أبعاداً يوتوبية مثالية، ولكن يمكن القول بأن هذه الأبعاد اليوتوبية المثالية لم تحصر المشروع في دائرة المستحيل أو عدم قابليته للتحقيق، بل إن ملامسته للواقع المعيش تجعله في دائرة الممكن. لكنه يظل حتى الآن بعيداً عن دائرة التطبيق أو الاختبار كي نعرف مدى قدرته على التعامل مع العقبات الداخلية أو الخارجية التي تعترض تطبيقه.

المصادر والمراجع

أولاً- المراجع العربية

- 1- الزاوي وبغورة ، منزلة الحوار والتواصل في الفلسفة المعاصرة، مجلة الفلسفة والعصر، العدد الخامس، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة ، 2006.
- 2- أيان كريب: النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة محمد حسين غلوم ، (الكويت، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، 1999م).
- 3- تد هوندرتش: دليل أكسفورد للفلسفة، الجزء الأول، ترجمة: نجيب الحصادي، (ليبيا ، المكتب الوطني للبحث والتطوير، 2003م).
- 4- جلول مقورة: هابرماس: الفعل التواصل وجذلية الذاتي والتذاتي، مجلة التربية والابستمولوجيا، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة- (الجزائر، مخبر التربية والابستمولوجيا، العدد4، 2013م).
- 5- دافيد فونيسكا: أثر هابرماس في الفقه الدستوري المعاصر، "مجلة القانون العام وعلم السياسة، العدد 6"، (2007م).
- 6- سعيد توفيق، في ماهية اللغة وفلسفة التأويل، (بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2002).
- 7- شريفي أنيسة: فلسفة أخلاقيات الحوار عند هابرماس، (مجلة الحوار الثقافي ، جامعة عبد الحميد بن باديس- كلية العلوم الاجتماعية- مخبر حوار الحضارات والتنوع الثقافي وفلسفة السلم، مجلد5، عدد2، 2016م).
- 8- عبدالغفار مكاي: النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، (حوليات كلية الآداب، الكويت ، 1993م).
- 9- عقيل حسين عقيل، منطق الحوار (بين الانا والآخر)، (بنغازي، دار الكتب الوطنية).
- 10- عمر مهيل: إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، ط1، (المركز الثقافي العربي، 2005م).
- 11- فرائك أدولف: المجتمع المدني، "النظرية والتطبيق السياسي"، ترجمة: عبدا لسلام حيدر، (مركز المحروسة للنشر، القاهرة، 2009).
- 12- مجدى باسلوم، بنات الأفكار في أدب المناقشة والحوار، (دار الكتب العلمية : بيروت ط1 ، د.ت).
- 13- محمد الأشهب: أخلاقيات المناقشة في فلسفة التواصل لهابرماس، (الأردن، دار ورد، 2013م).

- 14- هابرماس: مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية، ترجمة: جورج كتورة، ط1، (بيروت، لبنان، المكتبة الشرقية، 2006 م).
- 15- عمر مهيل: هابرماس والخطاب الفلسفي للحدث، (مجلة مدارات، تونس، العدد 11-12، 1999 م).

ثانيًا- المراجع الأجنبية:

- 1- Charles Taylor, *Grandeur et misère de la modernité*, Québec, Bellarmin, 2004.
- 2- William Rehg, Discourse ethics, In : Jürgen Habermas Key Concepts, edited by Barbara Fultner, RoutledgeTaylor& Francis Group, London and New York, 2014.